الفصل السابع

ألوان البديع

البحث في ألوان البديع :

قد عرض الزمخشري للمشاكلة ، والطباق ، والجناس ، والمزاوجة ، والتقسيم ، وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع . كما عرض لفنون البيان والمعاني ، ولا أجد في كلامه ما يدل على أن الألوان التي جعلها المتأخرون من علم البديع دون غيرها من فنون البيان ـ والمعاني ، من حيث أثرها في قوة الكلام وبلاغته ، وقد نظرت في كتابه كله ، ووقفت عند كل لون ذكره من هذه الألوان . فوجدته يشير إلى بلاغتها ، وإلى أنها فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، وأنها من مستغرب فنون البلاغة ، ثم يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التي تحيط بكل هذه الفنون ، وتوجد فيها على أحسن صورة وأقوم منهج .

يقول في المشاكلة : « ولله در التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منه فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه »[1] .

ويقول في نوع من أنواع اللف : « إنه لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدي إلى تبينه إلا النقاب المحدث من علماء البيان »[2] .

---

(١) الكشاف ٨٥/١ .

(٢) المرجع السابق ١٢٢/١ .

ويذكر إعجاب شريح القاضي ببلاغة الشاهد الذي راعى المشاكلة حين قال شريح : إنك لسبط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تجعد عني . فقال له شريح : لله بلادك ، وقبل شهادته[1].

ثم هو يبسط هذه الألوان ويحللها ، ويشرح أسلوبها ، وما تنطوي عليه من أسرار ونكت ، وهذه طريقته في دراسة فنون البيان والمعاني .

وقد ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن ألوان البديع لا تدخل في قضية الإعجاز القرآني كما يتصورها صاحب الكشاف ، وأن الزمخشري يرى أن البديع ذيل تابع لعلمي المعاني والبيان . وكان أول من ذهب إلى هذا من المعاصرين الأستاذ مصطفى الجويني في بحث كتبه عن منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه ، وكان أول بحث مبسوط يكتب عن الزمخشري ، ويتناول المسائل البلاغية بالصورة التي تناولها .

يقول الأستاذ الجويني : « والزمخشري حين يرى أن القرآن مختص بعلمين هما المعاني والبيان فهو في هذا يتأثر بعبد القاهر الذي يرى مزية الكلام الجمالية في معناه . وأما اللفظ فهو خادم للمعنى ، ولهذا فلن تظفر هنا بأكثر من ثلاثة ضروب من البديع على كثرتها ، وليس الزمخشري بهذا منكراً للصنعة البديعية ، فبها يحسن الكلام ولكنها قشر بجانب اللب ، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحيها نظم الكلام »[2].

وقبل مناقشة هذا الكلام أرى أن أذكر رأيين لكتابين تعرض أحدهما في كتاب كتبه عن البلاغة لمذهب الزمخشري ، وكتب الآخر كتابه خاصًّا بالزمخشري ، وليس هناك فرق بين ما ذهب إليه الأستاذ الجويني وما ذهب إليه الفاضلان في بيان مذهب الزمخشري في البديع ، بل أرجح أنهما اعتمدا عليه فيما كتباه في هذا الموضوع .

---

(١) الكشاف ١/٨٥ .

(٢) منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

يقول أولهما الأستاذ الدكتور شوقي ضيف : « وكانت كلمة البيان كما قدمنا قد ترددت على لسان عبد القاهر في فاتحة كتابه أسرار البلاغة فاتخذها الزمخشري علما على مباحثه فيه ، وهي مباحث تناولت في تفصيل : التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز بنوعيه اللغوي والعقلي ، أو الإسناد الحكمي ، وبذلك كان الزمخشري أول من ميز بين هذين العلمين فجعل لكل منهما مباحثه الخاصة ، واستقلاله الذي يشخصه ، ونقل عن السيد الجرجاني أنه لم يكن يعد البديع علما مستقلا ، بل كان يراه ذيلاً لعلمي المعاني والبيان ، وسنرى السكاكي يتأثر به في ذلك ، وكأنه هو الذي ميز لأول مرة بين علوم البلاغة الثلاثة ، وإن كنا سنجد بينهما شيئًا من التداخل في الحين بعد الحين »[1].

ويقول في موضع آخر : « رأينا المتكلمين في القرن الخامس من الباقلاني إلى عبد القاهر ينحون البديع عن مباحث أسرار البلاغة في الذكر الحكيم ، وقد مضى عبد القاهر يكتشف نظرية المعاني ويضع نظرية البيان بمتشابكاتها الكثيرة ، وعرض في تضاعيفها للسجع ، والجناس ، وحسن التعليل ، والطباق ، ولكنه لم يعن بعد ذلك بتفصيل القول في ألوان البديع ، إذ كان يرى ـ كما رأى المتكلمون من قبله ـ أنه لا يدخل في قضية الإعجاز القرآني لأن كثيراً من ألوانه مستحدث ، وما جاء في القرآن إنما جاء دون تأت له وتكلف ، ومضى الزمخشري على هذا الهدي لا يعني بما جاء في الآيات الكريمة من بديع إلا عرضًا ، ونرى السيد الجرجاني ينقل عنه ـ كما مر بنا ـ أنه لم يكن يعد البديع علما مستقلا من علوم البلاغة إنما كان يعده ذيلا متمما لها . وتتمة تحمل عليها ، وكانت هذه النظرة إلى البديع سببا في أن لا يطيل النظر في ألوانه القرآنية ، وأن لا يلم بها إلا في الحين البعيد بعد الحين ، وإذا ألم بها مسها في خفة »[2].

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥ .

ويقول الأستاذ الدكتور الحوفي وهو الذي كتب كتابه بعد الأولين :

« والحق أن الجرجاني كان يريد بالنظم علم المعاني ـ أي الأسلوب ـ وكان قد ردد في كتابه أسرار البلاغة كلمة « البيان » فجاء الزمخشري وأطلق علم المعاني وعلم البيان على ما يطلقان عليه اليوم . ولهذا فصل العلمين بعضهما عن الآخر .

أما علم البديع فهو في رأي الزمخشري تابع للمعاني والبيان ، وليس علما قائمًا بذاته »[1] ... انتهى كلامهم .

ولست أوافق الأستاذ الجويني في تصوره لمرجع المزية عند عبد القاهر ، إذ أنها لا ترجع إلى المعنى كما يرى ، ولا ترجع إلى اللفظ كذلك ، وإنما ترجع إلى النظم ، وهذا أمر يفهمه المبتدئون في قراءة كتب عبد القاهر ، وأما أن الزمخشري حصر بلاغة القرآن في علمين هما المعاني والبيان فذلك حق ، وليس فيه إبعاد للصنعة البديعية ، لأن علمي المعاني والبيان لم يتحددا في بلاغة الكشاف بالصورة التي يتصورها المتأخرون حين حصروا كلا منهما في أبواب معينة .

ولست أوافقه كذلك في أن الزمخشري لم يذكر إلا ثلاثة أنواع من ضروب البديع ، وسوف أعرض ما ذكره منها وهو يزيد على ثلاثة أضعاف ما ذكر الأستاذ الجويني .

وقد يكون من أهم ما دفع هؤلاء جميعًا إلى القول بأن ألوان البديع لا تدخل في بلاغة القرآن عند الزمخشري : أنهم وقفوا عند كلامه في التجانس ، وأخذوا منه ظاهره . فالزمخشري يقول في قوله تعالى : ﴿ **وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ** ﴾ (هود:٤٤) بعد ما ذكر ما فيه من نكت وأسرار : « ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ،

---

(١) الزمخشري للأستاذ الدكتور أحمد الحوفي .

ورقصوا لها رءوسهم لا لتجانس الكلمتين ، وهما قوله : «ابلعي» و«أقلعي» . وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور» فقد يتوهم أن الزمخشري بهذا يضع من مكانة ألوان البديع في الإعجاز القرآني ، والحق أننا لا نسمع منه هذه النغمة إلا في فن الجناس ، وذلك راجع إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء في عصره إلى هذا الفن ، حتى صار صناعة ثقيلة متكلفة ، فهو بهذا يشير إلى أن ما جاء في القرآن من هذا اللون الذي فتنتم به لم يكن هو وحده سر بلاغته ، كما جعلتموه سر بلاغتكم ، ولهذا يقول في الجناس في آية : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ (النمل:٢٢) : «من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعًا ، أو يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى ، وسداده» ، ثم يقول في موقعه من القرآن : «ولقد جاء هنا زائدًا على الصحة فحسن وبدع لفظًا ، ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان «بنبأ» بخبر لكان المعنى صحيحًا وهو كما جاء أصح لما في «النبأ» من الزيادة التي يطابقها وصف الحال» .

والجناس وإن كان أقرب ألوان البديع إلى الحسن اللفظي لكنه في القرآن من محاسن الألفاظ والمعاني كما يقول .

وقد يكون من أهم ما دفع هؤلاء جميعًا إلى القول بأن ألوان البديع لا تدخل في بلاغة القرآن عند عبد القاهر ، أنهم رأوه قد أهمل ألوان البديع ، ولم يبسط القول فيها . كما فعل في ألوان البيان ، وصور النظم ، فظن أكثر الباحثين أنه غير ملتفت إليها ، لأنها لا تدخل في الإعجاز البلاغي للقرآن ، وهذا وهم لأن عبد القاهر أشار إلى أن الاستعارة داخلة في الإعجاز وهي من البديع كما يقول ، وأشار إلى أن المزاوجة من صور النظم وأنه يبلغ الغاية في دقته وتماسكه في صورها ، ومثلها الجمع والتقسيم . وأشار إلى أن سلطان المزية لا يعظم في شيء كعظمه في باب المزاوجة ، والجمع والتقسيم ،

وبعض صور التشبيه إلى آخر ما ذكر . وقد حدد المرحوم الشيخ سليمان نوار مذهب عبد القاهر في البديع ، وكان رحمه الله قارئًا فطنًا كتب في مسائل البلاغة فصولا جادة تجتهد في تنقية البحث البلاغي واستقامة منهجه ، وقد كتبت هذه البحوث في أوائل الثلاثينيات ، فهي من البحوث الرائدة كما نرى . يقول ـ طيب الله ثراه ـ : « إن بعض ما عده العلماء من علم البديع ومن المحسنات العرضية لا الذاتية ، يجعله الشيخ من دقة النظم ، وقد سبق له أن النظم من عماد البلاغة ، وسيأتي عده من دقة النظم للتقسيم وحده ، والتقسيم والجمع ، وإذا كانت المزاوجة من صميم البلاغة كان كثير من المحسنات المعنوية مثل المذهب الكلامي ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وحسن التعليل ، وتجاهل العارف أولى بأن تكون من صميمها ومن المحسنات الذاتية »[1].

أما لماذا أغفل عبد القاهر ألوان البديع فذلك راجع إلى أن هذه الألوان قد اهتم بها النقاد والبلاغيون قبل القرن الخامس الذي عاش فيه عبد القاهر ، وأكملوا بحثها ، وحصروا أنواعها ، فكان عمله لو فعل تكرارًا لمجهود غيره ، فأولى أن يتناول النظم الذي هو في حاجة إلى وضع القواعد،وتأصيل الأصول، وأن يتناول البيان ، فإنه وإن كثر القول فيه إلا أن تحديد الفروق الدقيقة بين ألوانه لم تكن قد اتضحت ، ولهذا كانت محاولة الفرق بين التشبيه والتمثيل ، ومحاولة الفرق بين الاستعارة والتشبيه ، والفرق بين الاستعارة والتمثيل . أكبر الدروس وأجلها في هذا الكتاب ، فعبد القاهر قد اهتم بأمور كانت في حاجة إلى جهد ، وانصرف عن أمور انتهى القول فيها وهذا خلق العالم الجاد . أما أن نفهم أنه انصرف عنها لقلة شأنها في البلاغة القرآنية فذلك بعد عن الحق فيما أرى . ولو تأملنا ما كتبه في التجنيس والسجع لوجدناه دفاعًا عن بلاغة هذه الفنون ، ومحاولة جادة لتجلية جانبها المشرق ، الذي أطفأته تكلفات الأدباء والشعراء في زمانه .

---

(١) مذكرة في البلاغة للأستاذ المرحوم الشيخ سليمان نوار ص ٥٨ .

وقد يقال : إن عبد القاهر اهتم بالتشبيه الحسي وأنواعه ، وقد سبقته جهود فيه جعلت حديثه فيه كالمعاد ـ وأقول : نعم إن ذلك حق ، ولكن الذي أفهمه أنه ذكر التشبيه الحسي وكرر القول فيه بالنسبة إلى من سبقه لأنه يريد أن يوضح ويظهر الفرق بينه وبين التمثيل ، فلا مفر من استيعاب جميع صوره ، ولذلك كانت أول عبارته في دراسة التشبيه هي بيان تقسيمه إلى تشبيه وتمثيل ، ثم استطرد به القول وفاء بحق البحث . وكان أول من جعل الفرق بين التشبيه الصريح والتمثيل رأس مسألة .

ولما ذكر الزمخشري علم المعاني وعلم البيان وسكت عن علم البديع زعم السيد الشريف أنه يرى أن البديع ذيل لعلمي المعاني والبيان ، ولست أدري كيف يفهم هذا من كلام الزمخشري الذي لم يشر إلى أن المعاني والبيان رأس البلاغة حتى نفهم أنه اعتبر البديع ذيلاً ، وسوف يتضح لنا مذهبه في البديع حين نعرض دراسته لفنون البديع وبيانه لقيمتها البلاغية ، وقد يكون فيما قدمناه من إشاراته إلى اللف وأنه فن دقيق المسلك لا يهتدي إليه إلا النقاب المحدث ، وفيما ذكره في المشاكلة وأنها فن من فنون البلاغة وشعبة من شعبها . قد يكون في هذا وذاك ما يقوى زعمنا من عدم إصابة مولانا الشريف كبد الحق حين حسب أن الزمخشري جعل البديع ذيلا في بلاغة القرآن المعجزة ، وكان على الأستاذ العلامة الدكتور شوقي وهو الباحث الذكي أن يشير إلى خطأ السيد في هذه المسألة خير من أن يعتبر عبارته أصلاً يبنى عليه رأيه في تصور الزمخشري لفنون البديع متأثرًا في هذا بما ذكره الفاضل الجويني في مذهب الزمخشري في البديع ، على أننا لا نحسب عبارة الزمخشري في «الجناس» وأنه مما سماه المحدثون «البديع» مسقطة له ، لأنها ناظرة إلى عبارة الجاحظ في الاستعارة ، وأنها مما سماها المحدثون البديع ، فكما أن عبارة الجاحظ هذه لا تسقط القيمة البلاغية لفن الاستعارة ، فكذلك عبارة الزمخشري لا تسقط القيمة البلاغية لفن الجناس ، أو لفنون البديع ، نعم قد ذكر أن الجناس قشور

وقد ذكرنا أن ذلك قول يتجه به الزمخشري كما فعل غيره إلى طائفة من الشعراء والأدباء عناهم عبد القاهر قبله بقوله : « وقد تجد في كلام المتأخرين كلامًا حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبين »[1] .

وقد سبق قوله في ترشيح الاستعاره إنه الصنعة البديعة التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وأن الكلام الذي يتأتى فيه هذا الفن تأتيا طيعا يتلاحق ، لم تر كلاما أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقًا .

فإذا كانت الاستعارة مظهرًا من مظاهر الإعجاز البياني أو سرًّا من أسرار البلاغة ، فهل يمكن القول بأن الترشيح وهو ماؤها ورونقها ليس مظهرًا من مظاهر الإعجاز ، وليس سرًّا من أسرار البلاغة ، وإنما هو ذيل للبلاغة في مفهوم الزمخشري ؟

أما الألوان التي ذكرها الزمخشري مما جعله المتأخرون من علم البديع والتي نرى حديثه فيها أصدق دليل على ما أقوله في فهم مذهبه في البديع فهي :

١- **المشاكلة** : ويسميها المقابلة أحيانًا ، وهو يعني بالمقابلة معناها اللغوي .

يقول في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا** ﴾ (البقرة:٢٦) : « ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة ، فقالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ؟ مجاز على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب منه قول أبي تمام :

من مُبْلِغُ أَفْنَاءَ يَعْرُبَ كُلَّها أنِّى بَنَيْتُ الجَارَ قَبْلَ المَنْزِل

وشهد رجل عند شريح فقال : إنك لبسط الشهادة ، فقال : إنها لم تجعد عني ، فقال : لله بلادك ، وقبل شهادته ، فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار . ولولا سبوطة الشهادة

---

(١) أسرار بلاغة القرآن ص ٥ .

لامتنع تجعيدها ، ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فنًّا إلا عثرت عليه فيه على أقوم مناهجه وأسد مدارجه»[1] .

والمشاكلة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ وفي قول أبي تمام : ذكر الشيء بلفظ غيره المقدر ذكره ، لأن قولهم : أما يستحي رب محمد ؟ غير مذكور في الكلام ، وكذلك بناء المنزل إذ التقدير : أني بنيت الجار قبل بناء المنزل ، وقول الشاهد : أنها لم تجعد عني ، فيه مشاكلة بذكر ضد اللفظ المذكور ، لأن التجعيد هنا معناه امتناع الشهادة وتأبيها عليه . وصح ذلك لأن القاضي ذكر السبوطة في ضد ذلك ، فشاكل الشاهد بذكر ضد ما ذكر القاضي . وهذا الذي ذكره الزمخشري يكاد يكون بلفظه في الإيضاح[2].

ويقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (البقرة:١٣٨) : «وهي فعلة من «صبغ» كالجلسة من «جلس» ، وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ ، والمعنى تطهير الله . لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قالوا : الآن صار نصرانيًّا حقًّا ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتكم ، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيركم ، أو يقول المسلمون : صبغنا الله بالإيمان صبغة ، ولم نصبغ صبغتكم ، وإنما جيء بلفظ «الصبغة» على طريقة المشاكلة كما يقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان ، تريد رجلاً يصطنع الكرام»[3].

والمشاكلة هنا بين قول وفعل لأن الغرس لم يجر ذكره تحقيقًا ولا تقديراً كما في الأمثلة الأخرى[4]. وقد نقل الخطيب هذا النص وجعله من القسم الثاني

---

(١) الكشاف ٨٥/١ .
(٢) تنظر : بغية الإيضاح ٢٣/٤ .
(٣) الكشاف ١٤٧/١ .
(٤) تنظر : حاشية الشهاب ٢٤٨/٢ .

من المشاكلة وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تقديراً ، لأن لفظ « الصبغ » لم يقع من النصارى[1] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ (المائدة:١١٦) : « والمعنى : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبينه ، فقيل : ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ لقوله : ﴿ فِي نَفْسِي ﴾[2] .

والمشاكلة هنا من فصيح الكلام وبينه .

وقد يكون ذكر الشيء بلفظ المذكور في صحبته يصلح أن يكون مبنيًّا على التشبيه ، ولكن الزمخشري يجعله من طريق المشاكلة ، ثم يشير إلى ما ينطوي عليه هذا التعبير من فوائد أساسها علاقة الشبه .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ (الشعراء:٤٣-٤٦) : « وإنما عبر عن الخرور بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاءات فسلك به طريق المشاكلة ، وفيه أيضًا مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوها لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحًا »[3] .

وقد يطلق المزاوجة على صور المشاكلة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ (النحل:١٢٦) : « سمى الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة »[4] .

٢- اللف :

يذكر الزمخشري صوراً من اللف ... منها ذكر المتعدد على جهة الإجمال ،

---

(١) بغية الإيضاح ٤/٢٤ .
(٢) الكشاف ١/٥٤١ .
(٣) المرجع السابق ٣/٢٤٦ .
(٤) المرجع السابق ٢/٥٠٢ .

ثم ذكر ما لكل على جهة التفصيل ثقة بأن السامع سيرده، يقول في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ (البقرة:١١١) : « والمعنى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله ، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ، ونحوه : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْ ﴾ (البقرة:١٣٥)[١].

والآية من شواهد الإيضاح وما ذكره الخطيب فيها منقول من كلام الزمخشري[٢].

ويشير إلى ذكر المتعدد على جهة التفصيل والترتيب .

يقول في قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:١٠٣) : « وهو اللطيف يلطف عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل لطيف ، فهو يدرك الأبصار لا تلطف عن إدراكه ، وهذا من باب اللف »[٣].

وقد يكون ذلك المتعدد وتوابعه على غير ترتيب ، فيشير إلى ترتيبه ويعلل إهماله ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ (الروم:٢٣) : هذا من باب اللف ، وترتيبه : ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين القرينتين الأوليين بالقرينتين الأخريين لأنهما زمانان ، والزمان والواقع فيه كشيء واحد »[٤] .

ويشير إلى نوع من اللف يلطف مسلكه ويدق فهمه .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ

---

(١) الكشاف ١٣٢/١ .
(٢) ينظر بغية الإيضاح ٣٤/٤ .
(٣) الكشاف ٤٣/٢ .
(٤) المرجع السابق ٣٧٣/٣ .

﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ (البقرة:١٨٥) : «الفعل المعلل محذوف مدلول عليه بما سبق ، تقديره : ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾، فعل ذلك يعني جملة ما ذكر من أن الشاهد بصوم الشهر وأن المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه . ومن الترخيص في إباحة الفطر ، فقوله ﴿ وَلِتُكۡمِلُواْ ﴾ علة الأمر بمراعاة العدة . ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ﴾ علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير ، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدي إليه إلا النقاب المحدث من علماء البيان»[(١)].

وقد أشار سعد الدين إلى هذا النوع . وقال : وهنا نوع آخر من اللف لطيف المسلك ، وهو أن يذكر متعدد على التفصيل ، ثم يذكر ما لكل ويؤتى بعده بذكر المتعدد ملفوظًا أو مقدرًا فيقع النشر بين لفين ، أحدهما مفصل ، والآخر مجمل . وهذا معنى لطف مسلكه ، ثم نقل كلام الزمخشري السابق وأورد عليه اعتراضًا ، ملخصه : أن الزمخشري ذكر في اللف أمر الشاهد بصوم الشهر ولم يجعل له مقابلاً في العلل وأنه ذكر في العلل ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ﴾ واعتبرها علة لما علم من كيفية القضاء ، وهذا لم يذكر في المعللات ، وأجاب بأن ذكر الشاهد بالصوم لم يذكر إلا ليبنى عليه غيره فليس ما يدعو إلى ذكر علة له ، وأن ما علم من كيفية القضاء مفهوم من الأمر بمراعاة العدة ، وبهذا يكون تطبيق العلل على المعلولات في كلام الزمخشري وافيًا وصحيحًا»[(٢)].

وقد تكون الصفات الراجعة إلى المذكور متقابلة فيجتمع اللف والطباق ، يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ (هود:٢٤) : «وشبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللف والطباق»[(٣)].

---

(١) الكشاف ١/١٧٢ .
(٢) ينظر : المطول ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .
(٣) الكشاف ٢/٢٠٣ .

٣- الاستطراد :

وقد أشار الزمخشري في مواطن كثيرة إلى طريقة الاستطراد وذلك في بيانه لمناسبات الجمل وعلاقات أجزاء الكلام بعضها ببعض .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (البقرة:١٨٩) : «فإن قلت : ما وجه اتصاله بما قبله (يعني : ليس البر) قلت : ويجوز أن يجري ذلك على طريق الاستطراد ، لما ذكر أنها مواقيت للحج لأنه كان من أفعالهم في الحج»[(١)] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ (طه:١١٣،١١٤) : «ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد : وإذا لقنك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليه ريثما يسمعك ويفهمك ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك»[(٢)] .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ (آل عمران:١١٠،١١١) : «فإن قلت : ما موقع الجملتين أعني : ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ ؟ قلت : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت ، ولذلك جاء من غير عاطف»[(٣)] .

---

(١) الكشاف ١/١٧٧ .
(٢) المرجع السابق ٣/٢١ .
(٣) المرجع السابق ١/٣٠٨ .

وينقل صاحب الإيضاح في بحث الاستطراد قوله في آية : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾ (الأعراف:٢٦) يقول الزمخشري فيها : «وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدء السوءات ، وخصف الورق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، لما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[(١)].

٤ - التفصيل :

وأشار إلى طريقة الإجمال والتفصيل ، وإلى قيمتها في أداء المعنى فهي تارة تفيد التعظيم ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ (آل عمران:١٩٥) .

يقول : «فالذين هاجروا : تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة ، وهي المهاجرة عن أوطانهم فارين إلى الله بدينهم ...»[(٢)].

وتارة تفيد تقوية المعنى ، وإثباته ، وذلك بإجماله أولا حتى تتهيأ النفس إلى معرفة تفصيله ، فإذا جاء مفصلا كان أثره أبلغ ، وكان التفات النفس إليه أشد ، وأقوى . يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾ (طه:٢٥،٢٦) : «فإن قلت : «لي» في قوله : ﴿ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴾ ما جدواه والكلام بدونه مستتب ؟ قلت : قد أبهم الكلام أولا فقيل : اشرح لي ويسر لي ، فعلم أن ثَمَّ مشروحا وميسرا ، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما ، فكان آكد لطلب الشرح والتيسير لصدره وأمره من أن يقول: اشرح

---

(١) الكشاف ٧٦/٢ وينظر : بغية الإيضاح ٢٥/٤ .
(٢) الكشاف ٣٥١/١ .

صدري ويسر أمري ، على الإيضاح الساذج ، لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريق الإجمال والتفصيل »[1].

ويشير إلى حذف أحد أقسام المفصل أو التفصيل ، ودلالة المذكور على المحذوف ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (النساء:١٧٢،١٧٣) : « فإن قلت : التفصيل غير مطابق للمفصل لأنه اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد ، قلت : هو مثل قولك : جمع الإمام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ، ومن خرج عليه نكل به ، وصحة ذلك لوجهين ، أحدهما : أن يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه ، ولأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني ، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا : فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، والثاني وهو أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلا في جملة التنكيل بهم ، فكأنه قيل : ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله »[2] .

والبعض لم ير حذفًا في المفصل كما ذكر الزمخشري ، لأن قوله : ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (النساء:١٧٢) شامل للمستنكف وغير المستنكف ، وذكر عيسى عليه السلام والملائكة يرشح هذا . وقد أشار إلى ذلك ابن المنير وهو على حق . نعم إن المثال الذي ذكره صالح لهذا النوع الذي يحذف فيه قسم من المفصل ، ثم إن الآية بعده مثال صحيح للنوع الثاني الذي يحذف فيه قسم من التفصيل .

---

(١) الكشاف ٤٧/٣ .

(٢) المرجع السابق ٤٦٤/١ .

ويشير الزمخشري إلى أن أحد أقسام التفصيل قد يكون داخلا في الآخر ، ولكنه يذكر قسيما له لتخصص معناه بشيء دون شيء ، وبذلك يصبح القسم قسيما .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَ ﴾ (المائدة:٥٧) : «وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار وإن كان أهل الكتاب من الكفار إطلاقًا للكفار على المشركين خاصة»[(١)] .

٥- الكلام الموجه :

ويذكر الزمخشري احتمال الكلام لوجهين مختلفين ويسميه «القول ذا الوجهين» يقول في قوله تعالى : ﴿ وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا ﴾ (النساء:٤٦) : «وهو قول ذو وجهين يحتمل الذم أي اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت لأنه لوأجيبت دعوتهم عليه لم يسمع ، فكن أصم غير مسمع ، ويحتمل المدح أي ﴿ وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ ﴾ مكروها ، من قولك : أسمع فلان فلانًا ، إذا سبه ، وكذلك قولهم : ﴿ وَرَٰعِنَا ﴾ يحتمل : راعنا نكلمك أي ارقبنا وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها ... فكانوا سخرية بالدين وهزءا برسول الله ﷺ يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ... فإن قلت : كيف جاءوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا : سمعنا وعصينا ؟ قلت : جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء»[(٢)] .

وقد نقل صاحب الإيضاح هذا التحليل ولم يزد في بيان التوجيه زيادة ذات فائدة عن ما ذكره الزمخشري هنا[(٣)].

---

(١) الكشاف ١/٥٠٦ .
(٢) المرجع السابق ١/٤٠٠ .
(٣) تنظر : بغية الإيضاح ٤/٦٤ ، ٦٥ .

ويذكر الكلام الموجه أيضًا في قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ (يوسف:٧٩) : يقول : « معاذ الله » هو كلام موجه ، ظاهره أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ؟ وباطنه أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح جمة ... فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالمًا وعاملا على خلاف الوحي »[١] .

٦- التورية :

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ ﴾ (يوسف:٧٦) : « فإن قلت : ما أذن الله يجب أن يكون حسنا ، فمن أي وجه حسن هذا الكيد ، وما هو إلا بهتان ، وتسريق لمن لم يسرق ، وتكذيب لمن لم يكذب ، وهو قوله : ﴿ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾ (يوسف:٧٠)، ﴿ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾ (يوسف:٧٤) ؟ قلت : هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة لأن قوله : ﴿ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف »[٢] .

والتورية لا تظهر بمعناها الاصطلاحي في هذا التعبير لأنها إطلاق لفظ له معنيان قريب وبعيد وإرادة البعيد ، واللفظ هنا ليس ذا معنيين، اللهم إلا إذا توسعنا في هذا وقلنا : إن فعلهم بيوسف يشبه السرقة لما فيها من مخادعة ، وادعاء ، وكذب ، ولأنها في نهايتها كانت سرقة لأخيهم .

ولذلك يمكن أن يقال : إن التورية هنا أقرب إلى المعنى اللغوي الذي هو الاختفاء من قولهم : وراه تورية ، أخفاه كواراه[٣] لأنه عليه السلام أخفى مراده في هذا التعبير ، وليس للزمخشري حديث عن التورية في تفسيره إلا هذه

---

(١) الكشاف ٣٨٤/٢ .
(٢) المرجع السابق ٣٨٣/١ .
(٣) القاموس المحيط ٣٩٩/٤ .

الإشارة الغامضة ، وهذا راجع إلى أن هذا اللون البديعي لم يكثر في القرآن الذي جرى أسلوبه على أعراق البلاغة الأصيلة ، متسما بوضوح الفطرة الإنسانية الصادقة ، ولهذا كانت شواهد الخطيب القرآنية في هذا اللون غير مسلمة له ، إذ أنه ذكر قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) ، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ ﴾ (الذاريات:٤٧) ، وهذه من صور البيان ، وقد كره عبد القاهر أن تفسر اليد هنا بالقدرة ، ولهذا قال سعد الدين : « إن الخطيب جرى في هذا على مذهب أهل الظاهر من المفسرين ، وهذا يعني أنه خالف شيوخ البيان حين اعتبر هذه الأمثلة من التورية »[1] .

٧- المقابلة :

والمقابلة قد تكون بين لفظين متقابلين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ (الزمر:٤٥) يقول الزمخشري : « ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل ، والاشمئزاز أن يمتلئ غمًّا وغيظًا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه» (الكشاف ٤/١٠٢) .

وقد تكون المقابلة بمعنى الموافقة في نظم الجمل ، يقول في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ (غافر:٦١) : « فإن قلت : لم قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال ، وهلا كانا حالين ، أو مفعولا لهما ، فيراعى حق المقابل ؟ قلت : هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل : ليبصروا فيه فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ، ولو قيل : ساكنا ، والليل يجوز أن يوصف بالسكون

---

(١) ينظر المطول ص ٤٢٥ ، وبغية الإيضاح ٤/٢٩ ، ٣٠ .

على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه ، لم تتميز الحقيقة من المجاز»[1] .

ويقول في هذه الصورة في موطن آخر : «جعل الإبصار للنهار وهو لأهله . فإن قلت : ما للتقابل لم يراع في قوله ﴿ لِتَسْكُنُواْ ﴾ و﴿ مُبْصِرًا ﴾ حيث كان أحدهما علة والآخر حالا ؟ قلت : هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لأن معنى ﴿ مُبْصِرًا ﴾ : ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب» (الكشاف ٢/٣٠٣) .

٨- الطباق :

وكما رأينا المقابلة تخرج عن معناها الاصطلاحي في كثير من المواقع التي سماها مقابلة ، كذلك نرى الطباق وهو أصل المقابلة عند الخطيب يتعدد مدلوله .

فقد يراد به مقابلة الكلمات من حيث التضاد وهذا أقرب إلى المعنى البلاغي الذي هو الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ (هود:٢٤) : «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو من اللف والطباق»[2] .

وقد يذكر الطباق ويراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها ، فالكلام المطابق هو الذي تتنزل فيه الأحوال على وفق المعاني . يقول في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا ﴾ (الأعراف:١٨٩) : «وقال ﴿ لِيَسْكُنَ ﴾ فذكر بعد ما أنث في قوله ﴿ وَٰحِدَةٍ ﴾ ، ﴿ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ذهابًا إلى معنى النفس ليبين أن

---

(١) الكشاف ٤/١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٠٣ .

المراد بها آدم ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها فكان التذكير أحسن طبقًا للمعنى»[1].

وقد يذكر الطباق بمعنى لا يبعد كثيراً عن معنى اللف الذي سبق ذكره، يقول في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١): «فإن قلت: ما معنى «ثم»؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، و﴿كِتَٰبٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، و﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ صفة له، وقوله ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة ثانية، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر، وأن يكون صلة لـ ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ و﴿فُصِّلَتۡ﴾، أي من عنده إحكامها، وتفصيلها، وفيه طباق حسن لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ـ أي بينها وشرحها ـ خبير عالم بكيفيات الأمور»[2].

والفرق بين هذه الآية وآية: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (الأنعام:١٠٣) التي ذكر أنها من اللف أن الأوصاف هناك لموصوف واحد هو المولى عز وجل، فهو لا تدركه الأبصار وهو اللطيف، وهو الذي يدرك الأبصار وهو الخبير، وهنا الإحكام والتفصيل وصفان للكتاب، والحكيم والخبير وصفان للمولى عز وجل، وكان الطباق لأن الكتاب المحكم المفصل من عند حكيم خبير، وقد يذكر الطباق بمعنى مراعاة تلاؤم الألفاظ ووقوعها في مواقعها، وقد يبدو من مظاهر التعبير ما يخالف هذا الأصل أي تبدو الكلمات وكأنها متباعدة، وحينئذ يحاول الزمخشري أن يكشف تطابقها المعنوي مشيراً إلى أن المطابيع هم الذين يراعون طباق المعاني.

يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ (فصلت:٥): «فإن قلت: هلا قيل: على قلوبنا أكنة، كما قيل:

---

(١) الكشاف ١٤٥/٢.

(٢) المرجع السابق ٢٩٦/٢.

﴿ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾ ، ليكون الكلام على نمط واحد ؟ قلت : هو على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك : قلوبنا في أكنة ، وعلى قلوبنا أكنة ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً ﴾ (الكهف:٥٧) ولو قيل : إنا جعلنا في قلوبهم أكنة لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني»[١].

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ ﴾ (النحل:٧) : «فإن قلت : كيف طابق قوله ﴿ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ ﴾ قوله : ﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ ﴾ ، وهلا قيل : لم تكونوا حامليها ؟ قلت : طباقه من حيث إن معناه : وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة فضلاً أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم ، ويجوز أن يكون المعنى : لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس»[٢].

٩- الازدواج :

أشار الزمخشري إشارة قصيرة إلى الازدواج ، وهو يعني به توافق آخر الكلمات في النطق ، فهو قريب من السجع الذي سكت عنه واكتفي بالإشارة إلى الحسن اللفظي ، أو توافق الفواصل . ولعله يرى أنه لا يصح إطلاق السجع على أسلوب القرآن ، والازدواج ليس فنًّا بديعيًّا مستقلا في بلاغة الإيضاح وشراح التلخيص ، وإنما أشار الخطيب إليه في دراسة السجع حيث يقول : «إن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفًا عليها ، لأن الغرض أن يزاوج بينها» ويقول : «وإذا رأيتهم يخرجون الكلام عن أوضاعه للازدواج في قولهم : إني لآتيه بالغدايا والعشايا» .

وقد يكون هذا كل ما ذكر عن الازدواج في الإيضاح .

---

(١) الكشاف ١٤٥/٤ .

(٢) المرجع السابق ٤٦٣/٢ .

أما إشارة الزمخشري القصيرة إلى هذا اللون فقد ذكرها في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح:٢٣) : « وقرأ الأعمش : « ولا يغوثا ويعوقا » بالصرف ، وهذه قراءة مشكلة لأنهما إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما سببا منع الصرف ، إما التعريف ووزن الفعل ، وإما التعريف والعجمة ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته أخواتهما منصرفات : ودا ، وسواعا ، ونسرا »[1].

فالقراءة قد تخالف المشهور لتراعي توافق النغم الصوتي ، وهذا التوافق لاشك في أنه أمر يتعلق باللفظ وحسنه ، وذلك جزء من البلاغة القرآنية .

١٠- التجانس :

وقد كان الجناس من فنون البديع التي ذاعت في القرن السادس الذي كتب فيه الكشاف ، وكان هذا الجناس غاية الأديب ، يقصد إليه ، ويتكلفه ، فسقط واسترذله النقاد ، وليس ذلك راجعًا إلى قلة شأنه في الأسلوب إذا وقع مطبوعًا ، بل إن غرام الأدباء به وتعلقهم بصوره دليل على أصالته وتأثيره وإن عجزوا عن أن يصوغوا منه صورًا زاهية ، فحين هاجم النقاد هذا اللون البديعي إنما هاجموا صوره المتكلفة المرذولة ، ومثل الجناس في هذا مثل الاستعارات التي أغرب فيها أبو تمام وتكلفها ، فليس استسقاط هذه الصور دليلاً على قلة شأن الاستعارة في الأسلوب ، وإنما هو استرذال لصور متكلفة قبيحة كانت أثرًا من آثار الإفراط فيها .

وقد وجدت هذا المعنى ظاهرًا في كلام الزمخشري .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف:٨٤) : « والتجانس بين لفظتي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعًا غير متعمل فيلمح ، ويبدع ، ونحوه : ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم ﴾ (التوبة:٣٨) ، ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ

---

(١) الكشاف ٤٩٦/٢ .

﴿ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ (الأنعام:٢٦) ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٤) ، ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ (النمل:٢٢) [١].

وكأن الزمخشري يشير بهذا إلى أن هناك تجانسًا يقع متكلفًا مصنوعًا فلا يملح ولا يحسن ويقول في قوله تعالى : ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ : «وقوله : ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ (النمل:٢٢) من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعًا ، أو يضعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء ههنا زائدًا على الصحة فحسن ، وبدع ، لفظًا ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان «بنبأ» بخبر لكان المعنى صحيحًا ، وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال» [٢] .

فإذا كان الجناس من محاسن اللفظ فهو يقع في القرآن مطبوعًا غير متكلف ، فيحسن ويبدع لفظًا ومعنى ، وهو من صميم البلاغة بشرط أن يضعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى ، وسداده ، وكأن هناك تجنيسًا لا يراعى فيه هذا الشرط فيضعه متكلفون لا يحفظون فيه روح المعنى ، ولا سلاسة النظم ، وقد أشرت إلى هذا في أول الفصل .

١١- تأكيد المدح :

قد أشرت في بحث الجملة إلى المعاني الأدبية لصيغة النفي والاستثناء ، وأشرت كذلك في دراسة العكس إلى أن الزمخشري يربط صورًا من التنويع والاستعارة الضدية بعضها ببعض ، ويجعلها من باب العكس .

وأشرت إلى أن التأكيد في طريقة الاستثناء ليس خاصًّا بتأكيد المدح ولا بتأكيد الذم .

---

(١) الكشاف ٣٨٦/٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٨٤/٣ .

ولما كنت أتكلم هنا عن ألوان البديع رأيت من الحسن أن أذكر شيئًا من كلامه في هذه الطريقة ليتضح لنا مقدار ما عالجه من فنون البديع ، وكيف كان يعالجها ، يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ﴾ (مريم:٦٢) : « أي إن كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغوا فلا يسمعون لغوا إلا ذلك ، فهو من وادي قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب»[1]

ويقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل:٦٥) : « فإن قلت : لم رفع اسم الله والله يتعالى أن يكون ممن في السموات والأرض ؟

قلت : جاء على لغة بني تميم حيث يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار ، يريدون ما فيها إلا حمار ، كأن أحدًا لم يذكر ، ومنه قوله :

عشية ما تُغْنِي الرِّماحُ مكَانها ولا النَّبْل إلا المشْرفيُّ المصَمَّمُ

وقولهم : ما آتني زيد إلا عمرو ، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه . فإن قلت : ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي ؟ قلت : دعت إليه نكتة سرية حيث خرج المستثنى مخرج قوله : إلا اليعافير ، بعد قوله : ليس بها أنيس ، ليئول المعنى إلى قولك : إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب ، يعني أن علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم ، كما أن معنى ما في البيت : إن كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس بتا للقول بخلوها عن الأنيس»[2].

١٢- الإدماج :

قد أشار الزمخشري إلى الكلام الذي يدرج تحته معنى آخر . وهذه الطريقة سماها البلاغيون الإدماج .

---

(١) الكشاف ٣/٢٠ .

(٢) المرجع السابق ٣/٢٩٧ وما بعدها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ (الأنعام:٩١) : « والقائلون هم اليهود بدليل قراءة من قرأ « تجعلونه » بالتاء . وكذلك « تبدونها » و« تخفون » ، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ ، فألزموا ما لابد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم ، وإن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابهم ، وتحريفهم ، وإبداء بعض ، وإخفاء بعض ، فقيل : جاء به موسى وهو نور وهدى للناس ، حتى غيروه ، ونقصوه ، وجعلوه قراطيس مقطعة ، ورفات مفرقة ، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء »[١] .

قال ابن المنير : « وهذا من دقة نظره في الكتاب العزيز ، والتعمق في آثار معادنه وإبراز محاسنه »[٢] .

* * *

(٢،١) الكشاف ٢/٣٤ .